



سعيد صبحي الصفاقي

وأبوه موظف بسيط • كان يعمل في
وزارة الصحة بالابتدائية القديمة • ورغم
ضآلة مرتبه • استطاع أن يوفر لهم
حياة مستورة تكفيهم مذلة سؤال اللثيم
والكريم على السواء •

وها هو الموت يخطفه من بينهم فجأة •
تاركا وراءه أسرة صغيرة ، وادعة لا تدرى
من أمر نفسها شيئا •

وأمه المسكينة • لقد أنهكها الحزن
بين يوم وليلة • وأحال شبابها الى حفر
وتجاعيد تملأ صفحة وجهها المكروب •

كم كان يشعر بالحرج أمس • وهو
يحس بالمعزين من الرجال والنساء •
يسلطون عليه أنظارهم • ويرقبونه في
كل خطوة • ومصمصات الشفاه تطلق
في أذنيه •

ان بعض قريباته من النساء لم يكتفين
بهذا • فاحتضنه وقبلنه في وجنتيه ،
ودموعهن تفرق وجهه وتشعره بالبلل •
كيف استحضرن كل هذه الكمية من
الدموع الى مآقيهن ؟ •

انطلقت الاصوات تعوى كصغير قطار
والكتل السوداء تميل في كل اتجاه •
وتطوح بالابدى يمينا وشمالا • بينما
لمعت الوجوه بأنها الدموع التي كانت
تحفر طريقها فوق الحدود المحمرة من
اللطم والبكاء •

وصحا (سيد) من نومه فزعا • ينظر
حوله مذعورا • وقلبه يدق في عنف •
ماذا حدث ؟ • لا شيء • أبوه مات !! •
وهذا هو اليوم الثاني بعد وفاته •
ولم تهدأ النار في البيت بعد • ولا ينتظر
أن تخبو جذوتها أو تخدم • وان خمدت
فبعد أن تترك آثارا رهيبة •

وفرك (سيد) عينيه في بظء • وقام
من السرير النحاس متخاذلا ، وألقى
بنفسه فوق الكنبه المتداعية ، وما زالت
آثار النعاس عالقة بأجفانه •

لقد نام كالقتيل بعد ليلة مرعبة •
بدأت بتشجيع الجنازة • وانتهت مع
انصراف آخر المعزين الذين تجمعوا في
المساء في صالة البيت • يسمعون
القرآن ، ويرشفون القهوة ، ويترحمون
على أبيه •

ومن أين لهن بتلك القدرة على البكاء
المتواصل دون تعب ؟ .

وأين كان هؤلاء جميعاً قبل أن
يموت والده ؟ .

لم يكن يعرف أن عائلة أبيه بمثل هذا
الكبر إلا أمس ..

صحيح انه سمع والده يتحدث عنها
كثيراً .. لكنه لم يتحدث عن كل هذا
العدد .. عدد ضخم من الرجال
والنساء .. كانوا يعزونه في والده وكل
منهم يذكر له أنه قريبه .. ولا يدرى
كيف .

وجاءت عليه لحظة من لحظات الامس ..
شعر فيها بالحجل من نفسه . فقد خالجه
شعور بالارتياح - رغم حرجه - لاهتمام
كل هؤلاء الناس به ، واستقطابه لكل
هذا العطف بغض النظر عن زيفه أو
صدقه .

ونفض (سيد) يجرجر قدميه ، وذهب
ليغتسل والعواء يملأ عليه البيت كآبة
وحزنا .

وعندما عاد . ارتدى ملابسه على
مهل . وغادر البيت في سكون ، وسار
في الطريق ، يتفحص وجوه الناس ،
وهو يشعر بأنه عاد الى عالمه القديم .
عالم ما قبل وفاة والده .

الناس يسرون . وجوههم خالية من
أى تعبير . وعم (حسين) البقال جالس
أمام دكانه يضحك بمناسبة وبلا مناسبة
ليستعرض أسنانه الذهبية . و (حامد)
صاحب محل الخردوات . منهمك في
مغازلة (فهيمة) الخياطة ، ويتبادل
النكات البذيئة معها .

لا أثر لدأساسة . لا أحد يحس
بمشكلته . وكلهم يعيشون حياتهم ..
حياة كل يوم ، بلا أدنى تغيير . لا يعكرها
إلا مأساة كمأساته . لكن الى حين .

هذه هي سنة الحياة . فهو أيضاً
سيتخلص من الاحساس بمأساته هذه
بعد حين . ليعيش في مأساة جديدة .
قد تكون مرتبطة بمأساته الحالية، لكنها
تختلف عنها .

هو الآن مهدد بالفصل من المدرسة -
أو على الأصح - مهدد بترك الدراسة
طوعية ، والتخلي عن جميع أحلامه التي
راودته ..

الجامعة .. الهندسة .. العمل
الكبير . وعن المستقبل . كل هذا
سيتخلى عنه الآن . فليس من المعقول
أن يستمر في الدراسة وقد أصبح
العائل الوحيد لأسرته . ومعاش أبيه
لن يكفيهم ولن يحصلوا عليه إلا بشق
الانفس . وموت يا حمار !!

هو لا يدرى ما الذى يمكن أن يعمل
بعد أن يترك الدراسة . فهو من الصف
الثانى الثانوى . ولم يحصل الا على
الاعدادية . وهى - كما يعرف - لا توفر
لصاحبها عملاً بالمعنى المفهوم . فضلاً عن
صغر سنه الذى يعتبر فى حد ذاته
مشكلة .

ولكن .. هل قدر له أن يواجه كل
شئ بمفرده ؟! ان هذا هو ما يخشاه
ويخافه .

لقد رأى زملاء له فى الحارة .
يصبحون رجالاً قبل الاوان .. وتحنى
أعوادهم الخضراء تحت أكوام المسئولية
المبكرة .. كان بعضهم ينقص .

والبرص الآخر كتب عليه أن يعيش محنيا
بأقى حياته .

هل جاء دوره ليصبح رجلا فى
السادسة عشرة . يحمل مسئولية نفسه
وعائلته ؟

انه فى موقف أكبر منه . وإمكاناته
وتجاربه الضئيلة أعجز من أن تقدم له
شيئا .

وكل مسؤولا الأقارب من الرجال
والنساء . سيفرون عند الجد . عندما
تنتهى صدمة الحزن المؤقتة ويتلاشى
الانفعال الزائف ويتبخر . هو يعرف
هذا تمام المعرفة . فقد رآه من خلال
مآسى أصدقاء الحارة الذين ابتلوا بمثل
ما ابتلى به .

رأهم يواجهون العاصفة بمفردهم .
حيارى . لا يدرون أى طريق يسلكون .
يمدون أيديهم الى فراغ . ولا يرون الا
ضباب يخفى عنهم كوارث المستقبل .
وان كانوا يدركونها بأحاسيسهم التى
شحذتها الصدمة . هل قدر له أن يقف
مثل هذا الموقف ؟ وهل يحتمل هذه

الصدمة ؟ . . . شئ محير . والعجيب أن
التفكير فيه يزيده حيرة شديدة ومفاجئة ،
لقد أصبح بالامس فقط . معقد آمال
الاسرة بعد أن ذهب عائلتها الأكبر .
وعليه تتوقف حياة هذه الانفس المعذبة ،
التي هدتها الفجيعة .

لم يترك أبوه شيئا . ولا حتى ثمن
الكفن . ولولا سوار ذهبى كان فى يد
أمه . ورث ثمنه فى غفلة من الزمن .
لما قدر لوالده أن يدفن أو يلمس جسده
كفن . والجنيهاات القليلة التى تبقت من
ثمن السوار . ذهبت أشتاتا ، وذهبت
فى لوازم الموت . وكان الدنيا تأبى الا
أن تجردهم من كل شئ حتى يقفوا أمامها
عزل من كل احتمالات المقاومة . . . موت
وخراب ديار .

وتذكر (حسن) و (عبد العزيز) وزملاءه
فى المدرسة . لقد دخلوا جميعا القسم
العلمى . . . ليلتحقوا بعهد ذلك بكلية
الهندسة سويا . . . هكذا كانوا يأملون .
وعلى ذلك صمموا . وها هو الآن مضطر



الكلام فقط .. أما أى شيء آخر فهم
لا يعبأون به .. ولا يهمهم .. حتى
ولو كان عذاب أسرة وشقاء رجل
صغير .. يواجه العاصفة .. أعزل من كل
مساعدة ..

واستدار عائدا الى البيت .. فلم يكن
يعرف أين يذهب ..

كان الوقت ظهرا .. والشمس تطل من
بين السحب البيضاء لتعود وتختفى
وراءها .. وشعر بالارهاق والتعب ..
وأحس برجليه تعجزان عن حمله ..
فسار الى البيت وهو لا يدري ان كانت
قدماه تتحركان أم ان الارض هي التي
تسير به ..

ودخل شقتهم الصغيرة .. فوجد أمه
متكومة على حصير فى احدى الغرف التي
أخليت لاستقبال المعزيات .. وقد راحت
فى ما يشبه الغيبوبة .. وبجانبا احدى
الجارات العجائز .. متكئة على الحائط فى
وهن وقد اسبلت أجفانها ..

أما أخته الصغرى .. فجلست ورأسها
مرفوع .. وعينيها تحدق فى الفراغ ..
والذهول يشكل تقاطيع وجهها الطاهر
البريء .. وكان عقلها ما زال عاجزا عن
استيعاب ما حدث ..

لقد مات أبونا يا جمالات .. وعلينا من
اليوم أن نعد أنفسنا لحياة جديدة ..
قد لا تعرفين ماهى .. ولكننى أعرف ..
وهذا ما يعذبنى ..

ودون أن يحس به أحد .. اتجه الى
غرفة النوم ، وخلع ملابسه فى هدوء ..
والقى بنفسه على الفراش وهو يتنهد
بعمق .. ولم يلبث أن راح فى سبات
عميق

الى التخلف .. فأمامه ظروف غير طبيعية
تسد عليه الطريق .. وتقف حائلا بينه
وبين أحلامه .. وأصبح مقادرا له أن
يعيش عود .. أخضر محنيا .. هذا ان
لم يتيبس وينقص قبل الاوان .. وأحس
بالثورة .. الثورة على كل شيء .. على
الفقر .. على القدر وسوء الحظ ..
لماذا يموت أبوه الطيب الفقير ؟ ..
وتموت معه أحلامه وآماله .. ولماذا أبوه
بالذات ؟ .. ألم يكن فى وسع القدر أن
ينتظر .. ينتظر ولو قليلا ..

وماذا يعيد كل هذا الآن .. لقد وقع
الامر .. وعليه أن يكيف نفسه ويهيئها
للظروف الجديدة التي أحاطت به دون
أن يكون له دخل فى ذلك ..

وتعب من المشى .. وأحس برغبة ملحة
فى الجلوس .. أن يفتش الارض
ويريح أقدامه المتعبة ..

لقد سار بالامس كثيرا .. دار على
بيوت الاقارب يحمل اليهم نيا وفاة
والده .. لكم كانت كريمة هذه المهمة
البغيضة .. لقد شاهد ألوانا من النفاق
والحزن الملق لم يكن يتوقع أن يراها ..
ومع ذلك فقد كان عليه أن يستمر فى
هذه المهمة حتى النهاية .. وبعدها ..
جرى الى الحانوتى .. ثم سار فى الجنازة ..
يحوطه المشيعون .. يطيبون خاطره ،
ويواسونه فى مصابه الاليم ..

كان يعلم أنهم لا يتكلمون الصدق ..
هى فقط تادية واجب تمرسوا عليها
وخبروها .. أما مأساته .. فلم تكن تهمهم
من شيء .. انها مأساته هو فقط ،
ولا تخص أحدا سواه ، وعليه أن يواجهها
بمفرده دون أن يعتمد على أقرب الاقارب
فكلهم منافقون .. يسرفون فى الكلام ..